Omdurman Islamic University Journal (OIUJ)
مجلة جامعة أم درمان الاسلامية
https://journal.oiu.edu.sd/index.php/oiuj
https://doi.org/ 10.52981/oiuj.v10i1.2031
2014; 10(1);40-62
ISSN: 5361-1858

منهج الرسول صلي الله عليه وسلم في حماية المجتمع المسلم

جعفر خلف الله شبو [1]

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية (151)

مستخلص البحث

اختط الرسول صلى الله عليه وسلم منهجاً متكاملاً لحماية المجتمع الإسلامي منذ فجر الدعوة واتخذ هذا المنهج أشكالاً مختلفة واعتمد وسائل متنوعة لتحقيق غايته، ففي مكة عول الرسول صلى الله عليه وسلم على التعاليم التربوية داعياً إلي الصبر والتمسك بالعقيدة والإبتعاد عن العنف والتبشير بحتمية إنتصار الإسلام لبث الأمل ورفع المعنويات، كما إعتمد السرية بإتخاذه داراً نائية بعيدة عن أعين الرقباء للإلتقاء بأصحابه مع كتمان أخبار المؤمنين وتوجيه بعضهم للهجرة إلى حيث يأمنون.

وفي تطور لاحق إنتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بجميع أتباعه إلى يثرب بموجب عقد حماية مع أهلها وهناك أسس مجتمعاً إسلامياً فريداً وسط مجتمعات غير إسلامية وعمل على حمايته بالمعاهدات وإتفاقيات الموادعة وحسن الجوار. وعندما لم تف الإجراءات السلمية بالغرض كاملاً وأذن للمؤمنين بالقتال، تصدى الرسول صلى الله عليه وسلم للمعتدين عسكرياً، إلا أن الحرب التي خاضها كانت جميعها دفاعية ووقائية من أجل حماية المجتمع الإسلامي الفريد الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً في الأخذ بصفات الكمال.

كلمات مفتاحية:– منهج، حماية، مجتمع.

جعفر خلف الله شبو، جامعة أم درمان الإسلامية – كلية التربية – قسم التاريخ والحضارة

Abstract

The prophet of Islam, peace be upon him, has put and executed an integrated plan to defend the first Muslims and the Muslim society since the dawn of the Islam Call. The plan has taken different shapes and used several means to achieve its goal.

In Makah the plan relied on the educational doctrines and urged for patience and self control refraining from using force as there was no permission for fighting. The invocation of God and the prayers were carried out secretly. Some of the early believers were directed to emigrate to safe lands to escape persecution and oppression.

In later development and according to a protective treaty with the people of Yathrib, the prophet himself and all his companions emigrated to live there where the unique Islamic society was established. The means of protecting and defending it also developed considerably. Many treaties and safe –conducts to restore peace and stop aggressions and offensives were signed with the people of Yathrib and with the neighboring tribes. The prophet and his companions were forced to fight defensive and preventing wars to defend the Muslims' society: but they were never aggressive or oppressive ones.

Keywords:- Method, Protection, Society.

مقدمة

لقد كان البحث في جوانب السيرة النبوية من أهم مناحي البحث في الدراسات الإسلامية عبر التاريخ، فسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي سنته العملية الهادية، وهي التطبيق الأمثل لكافة شرائع الإسلام وشعائره، ومن هنا تكتسب أي دراسة منهجية جادة للسيرة النبوية أهمية كبرى. أما إذا دعت حاجات العصر وثضاياه الملحة إلى تفحص ناحية معينة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ودراستها من جديد فإن البحث حينئذ يكتسب أهمية زائدة لإستجابته لحاجيات العصر ودواعيه.

لقد طرأ خلال العقود الماضية ما دعا ويدعو إلى دراسة جوانب معينة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم و عرضها في مجلى علمي جديد من أجل تقديم ردود شافية على الشبهات الكثيفة التي أضحت تثار من قبل بعض الأوساط العلمية والإعلامية وأوساط الخصام الأيديولوجي المحتدم في عدائه للإسلام ولرسوله عليه السلام. ومن أكثر الشبهات التي ترددت فى إطار الحملة الدعائية للإسلام مسألة الحروب والغزوات التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم.

وإنطلاقاً من توصيات الباحثين ومؤتمرات السيرة السابقة الداعية لسد الثغرات في مجال الدراسات المتخصصة فى هذا المجال تم إعداد هذا البحث بعنوان "منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية المجتمع المسلم "مفترضين أن حروبه صلى الله عليه وسلم لم تكن حروباً عدائية وإنما كانت حروباً أخلاقية عادلة تهدف لحماية المجتمع المسلم القادر على التعايش والتفاعل مع المجتمعات الأخري

.

الفصل الأول

التربية النبوية وحماية المجتمع المسلم

التربية النبوية:

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم عمله في تأسيس وتنشئة الكيان الإسلامي بالتربية. فقد ذكر القرآن الكريم مهمة الرسول الأساسية بصراحة في قوله تعالي ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ سورة الجمعة آية رقم(٢)

فقد حددت هذه الآية الكريمة من مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم التعليم والتربية. وكان الجانب الأعظم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مكرساً لهذا العمل الجليل الذي أكده عليه الصلاة والسلام بقوله "إنما بعثت معلماً [2] "بالتعليم هو اللبنة الأولى من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم المتكامل لحماية المجتمع الإسلامي بتشكيل أمة جديدة ذات مقومات فكرية وسلوكية وأخلاقية خاصة ولقد تجلي كمال المربي محمد صلى الله عليه وسلم في صهر أفراد هذه الأمة ثم أطلق طاقاتهم في إتجاه واحد حدد لكل فرد فيه مهمته ورباه على أدائها وقادهم في هذا الطريق فترة من الزمن ثم تركهم ماضياً إلى ربه فانطلقوا بعده لم يغيروا ولم يبدلوا وكان ما كان، ولا زال كلما تعثر المسلم أخذت بيده تعاليمه وتربيته فأنقذته ودفعت به إلى الأمام.

وظف الرسول صلى الله عليه وسلم منهجه التربوي لحماية الدعوة وضمان إستمراريتها وحماية أصحابه الذين هم نواة المجتمع المسلم ومادته. ولقد إتسم تطبيق المنهج النبوي تجاه العدو بالحكمة والديناميكية في كافة مراحله. فنجده في مكة يصبر ويأمر أتباعه بالصبر حتى لا يخسر أتباعه

قتلاً، وينشغل بقضايا الثأر عن تبليغ الدعوة، بينما تغيرت مواقفه في المدينة حسب الظروف الجديدة فينتقل من معاهدة إلى سلام إلى حرب في سبيل ما يحقق أمن المجتمع المسلم.

نستعرض فيما يلي أمثلة من سيرته الشريفة ينجلي فيها حرصه صلى الله عليه وسلم على حماية أصحابه والسهر على رعاية شؤونهم

الإضطهاد والتعذيب :

تواترت الروايات على أن أذى قريش إشتد بالمسلمين بمكة في السنة الرابعة من البعثة، فأخذ كل رئيس عشيرة يعذب من دان من قبيلته بالإسلام وتسلط سادات قريش المشركين على من إختار من عبيده طريق الإيمان، فجروا علي المسلمين ويلات تقشعر منها الجلود، فان أبو جهل وغيره من سادات قريش إذا سمعوا برجل له شرف ومنعة أنبوه وأخذوه وتوعدوه بالخسارة في المال، وبعض ذلك قد حدث لأبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله ومصعب بن عمير وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين. أما الضعفاء من العبيد والإماء فقد عذبوا عذاباً شديداً نذكر منهم بلالاً وصهيباً وآل ياسر وخباب بن الأرت وأبو فكيهه، ومن الإماء سمية بنت الخياط ونيرة والنهدية وأم عيسى. وقد عد الحافظ بن حجر منهم العشرات .[3]

ولم يسلم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نفسه من أذى قريش مع ما كان يتمتع به من عزة ومنعة وشرف ومهابة فقد تعرض للإستهزاء والمضايقة بطرق شتي مما ترويه كتب السير والمغازى في هذا الصدد مما تعرض له من أبي جهل وأبى لهب والأخنث بن شريف وعقبة بن معيط وغيرهم من المستهزئين .[4]

تدابير الحماية:

إزاء هذا الموقف المتأزم إتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من التدابير ما يخفف وطأة الويلات والأهوال ويشد به العزائم ويحمي أتباعه. ولقد تباينت التدابيرالتي إتخذها عليه الصلاة والسلام أو أمر بها بين مكة والمدينة حيث إختلفت أوضاع المسلمين بين المدينتين المقدستين إختلافاً جوهرياً.

ففي مكة إختار الرسول صلى الله عليه وسلم دار الارقم بن أبي الأرقم المخزمي مركزاً للدعوة ومقراً للتربية وكانت تلك الدار في أصل الصفا بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها ليجتمع فيها المسلمون سراً فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ولؤدوا عباداتهم وليدخل من يدخل الإسلام فلا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة في قريش[5]. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أم المصادمة مع كفار قريش في ذلك الوقت تؤدي إلى تدمير المسلمين وإبادتهم. وكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم بتوجيه م الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يجتمع بهم سراً [6].

عندما إشتدت إعتداءات القرشيين على المسلمين بمكة في أوائل العام الخامس من البعثة بدأ التفكير الجدي في وسائل الخلاص من العذاب الأليم فنزلت سورة الزمر تشير إلى إتخاذ سبيل الهجرة، قال تعالي ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر الآية (١٠)[7] فوجه الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام للهجرة للحبشة بعد أن علم أن ملكها النجاشي عادل لا يظلم عنده أحد، فتحرك أول فوج من المؤمنين قوامه إثنا عشر رجلاً وأربع نسوة على رأسهم سيدنا عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبع هذا الفوج آخر قوامه ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة أو

تسع عشرة إمراة وفشلت قريش في إحباط هذه الهجرة لدقة الترتيبات وللسرية التي أحيطت بها، كما فشلت في إستعادة المهاجرين من عند النجاشي فيما بعدا .[8]

ومن التدابير التي أقرها الرسول صلى الله عليه وسلم لحماية أصحابه الذين وفدوا إليه من خارج مكة أوصاهم أن يلحقوا ببلادهم ويدعوا أقوامهم حتي إذا سمعوا بظهوره لحقوا به ومن هؤلاء: سويد بن الصامت وإياس بن معاذ من أهل يثرب وأبو ذر الغفاري من سكان نواحي يثرب وطفيل بن عمرو الدوسي زعيم قبيلة دوس وضماد الأزدي من أزد شنوءة باليمن وعمرو بن عبسه المسمي ربع الإسلام والذي دخل الإسلام ثالثاً لأبي بكر وبلال رضوان الله عليهم.

وفي موسم حج العام الحادي عشر من النبوة الموافق ليوليو عام 620م أسلم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم سته من خيار شباب يثرب كلهم من الخزرج كانوا بذرة الإسلام الأولي بدار الهجرة وهم: عوف بن الحارث بن عفراء، رافع بن مالك بن العجلان، قطبة بن عامر بن حديدة، عقبة بن عامر وجابر بن عبد الله وأوصاهم بنشر الإسلام بين اقوامهم .[9]

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه في مكة بالصبر وضبط النفس ويقول لهم أنه لم يؤمر بقتال، ويبشرهم أن الله جاعل لهم مخرجا. وبقي على ذلك ثلاثة عشر عاماً لا يتوقف عن الدعوة ولا يشهر سلاحاً يربي اتباعه على الصبر والإحتمال ويعلمهم قصص الانبياء والمرسلين ليتأسوا بهم ومع ذلك يبشرهم بقرب النصر والفرج.

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإسلام في تأسيس وطن له، وجه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه للهجرة إلى يثرب افراداً وجماعات صغيرة في سرية تامة تسللاً ولوذاً، ولذلك لم يحمل المهاجرين الأوائل أمتعة بل كانت الهجرة تعني إهدار المصالح والتضحية بالأموال والنجاة بالدين فحسب، ومع ذلك أقدم عليها المسلمون بحماس شديد امتثالا لأمر رسولهم صلى الله عليه وسلم .[10]

أما بعد الهجرة وظهور ملامح المجتمع المسلم فقد أتخذ منهج الرسول صلى الله عليه وسلم التربوي الرامي لحماية المجتمع منحي آخر في الرعاية والعناية والسهر على شؤون الأتباع. فآخي بين المهاجرين والأنصار ليكفي المهاجرين الفقراء، واختط لهم سوقاً جديدة ليستغنوا عن سوق يهود بنو قينقاع الذين كانوا يسيطرونعلي التجارة .[11]أما من بقي من فقراء المهاجرين وأضياف الإسلام أسكنهم مسجده وهم أهل الصفة وتكفل بطعامهم وشرابهم، والأحاديث في ذلك متواترة عن أبي هريرة رضي الله عنه .[12]ولم تقف جهوده صلى الله عليه وسلم عند إطعامهم وكسوتهم بل زوج بعضهم كما في قصة زواج ربيعة الأسلمي وجليبيب [13].

وفي المدينة المنورة توسع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم التربوي لحماية المجتمع المسلم الوليد ليشمل جوانب عديدة من المثل العاليا والقيم والأخلاق المستمدة من شرائع الدين الحنيف. المسلمون فيه تتكافأ دماؤهم ويسعي بذمتهم أدناهم ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى، تسودة شرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تجعل من كل فرد فيه رقيباً علي كل شيءفيه، تسوده روح المحبة والإخاء والمسؤولية التي تجاوزت مزالق العصبية والقبلية وتجردت من هوى النفس وأسلمت قيادتها لله ولرسوله

صلى الله عليه وسلم ومع كل ذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم حاضراً يقظاً يعلَم ويوجه ويعاقب ويعزر وينشر البشارات. إذا رفعت العصبية أو القبلية رأسها يقول "دعوها فإنها منتنة [14] " وإذا عير أحد صحابه بأمه السوداء ينتصر له ويقول لمعيره "إنك امرؤ فيك جاهلية [15] " كما كان الإيمان هو الأساس المتين الي قام عليه أمن المجتمع المسلم علي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان العلم صمام أمانه، فقد جعل فداء المتعلمين من أسرى بدر تعليم أبناء المسلمين في بادرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ البشري [16] وكان يحض الأفراد والجماعات على طلب العلم والتعليم ولو تطلب الأمر رحلة إلى أقاصي الأرض، فقد ثبت عنه أنه قال "أطلبوا العلم ولو بالصين [17] " وقال أيضاً "ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة وفي رواية أخرى أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا [18] ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{78} كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ سورة المائدة الآية (٧٨-٧٩) [19].

لقد كان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم التربوي لحماية المجتمع المسلم نسقاً فريداً منسجماً مع الدعوة والرسالة بغرض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم وفي ذلك حماية وتحصين يتغلغل في اعماق المجتمع فيرقي ويسمو .

هوامش الفصل الأول : التربية النبوية

الفصل الثاني

إتفاقيات الصلح وعهود الأمان

إرتبط منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية مجتمعه المسلم بالمدينة المنورة بالعمل على حقن الدماء ما وجد لذلك سبيلاً لإحكام مباديء الدولة إحكاملاً يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد وسنرى في الفصل كيف أن هذه الأهداف السامية كانت حاضرة في كافة الاتفاقات والمعاهدات والمواثيق والعصم التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع الكيانات القبائل والأفراد بعد الهجرة المباركة في صيف عام 622م.

بيعة العقبة الأولي:

ذكرنا في الفصل السابق أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم حج سن 11من الهجرة النبوية ووعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ رسالته إلى قومهم وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي إثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الذين إلتقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام السابق والسبعة الآخرون من رؤساء العشائر بيثرب منهم: أبو الهيثم بن التيهان وعبادة بن الصامت ومعاذ بن الحارث)ابن عفراء (من بني النجار [٢٠] فبايعهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأرسل معهم مصعب بن عمير العبدري ليعلم المسلمين شعائر الإسلام بيثرب. فصادف نجاحاً وتوفقياً ولم يتبق دار من دور الأنصار إلا وفشا فيها الإسلام[٢١]. وعاد

مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل موسم حج العام الثالث عشر للبعثة يونيو 622م ليبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بالنجاح.

بيعة العقبة الثانية:

لما كان موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من الهجرة النبوية – يونيو 622م حضر لأداء مناسك الحج ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان من المسلمين من أهل يثرب للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إتصالات سرية أدت إلى إتفاق الفريقين للإجتماع في أوسط أيام التشريق عند جمرة العقبة بمنى وأن يتم الإجتماع في سرية تامة. وجاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه، جاء ليستوثق لإبن أخيه وتمت البيعة المعروفة في التاريخ الإسلامي ببيعة العقبة الثانية للرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكروه وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ولكم الجنة "[٢٢].

ثم اختار إثني عشر زعيماً يكونون كفلاء على قومهم في تنفيذ بنود البيعة وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس سماهم الرسول صلى الله عليه وسلم النقباء [٢٣]، وقال لهم: " أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسي ابن مريم، وأنا كفيل على قومي "[٢٤].

وضعت هذه البيعة المباركة الأساس المتين الذي قامت عليه دعائم مجتمع الأمة المسلمة بيثرب، فقد مهدت الأرض وضمنت الحماية اللازمة لتبليغ الدعوة والانخراط في عملية البناء. ومالبثت دار الهجرة أن أصبحت عاصمة لإمبراطورية مترامية الأطرف كان على الرسول صلى الله عليه

وسلم أن يتصدي لمشاكل الهجرة بإيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس في المدينة ليسوا جميعاً مسلمين فهناك الوثنيون واليهود والمنافقون، وكان لابد من حل مشكلة المهاجرين الإقتصادية الذين تركوا أولادهم ومساكنهم وأموالهم بمكة.

المؤخاة بين المهاجرين والأنصار:

قال ابن القيم رحمه الله آخي الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخي بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر عندما نزل قوله تعالي } وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض [٢٥] فرد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

كان هذا الإخاء عملاً من أروع مآثر التاريخ: أذاب عصبية الجاهلية وأسقط فوارق النسب واللون والوطن، ولم يعد للولاء والبراء أساس غير الإسلام. وقد إمتزجت عواطف الإيثار والمواساة وإسداء الخير في هذه الأخوة وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال وكانت حكمة فذة وسياسة حكيمة وحلاً رشيداً للمشاكل التي كان يواجهها المسلمون المهاجرون، ولا عجب فذلك منهج النبوة في رعاية المجتمع المسلم.

ميثاق التحالف الإسلامي :

كما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقد المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية وما كانوا عليه من نزاعات قبلية جائرة، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. ولقد وجد ما يستدعي إبرام ذلك الميثاق في ذلك الوقت، فقد كان مجتمع

يثرب مؤلف من الأوس والخزرج وبينهم عداء قديم وليسوا جميعهم على الإسلام وكان اليهود منقسمين بين الأوس والخزرج ويحرصون على إستدامة النزاع بينهما من أجل مصالحهم الإقتصادية.

كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كتب أول وثيقة سياسية بين هذه الأطراف عرفت في التاريخ بوثيقة المدينة وميثاق الأمة وهي بمثابة الدستور الذي يتعايش به جميع هؤلاء بعد أن رضوه. قال ابن أسحق" :كتب رسول الله صلي الله علية وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم "[٢٦].

أهم ما جاء في هذه الوثيقة التاريخية أنها جعلت المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة من دون الناس، وأن ذمتم واحدة يجير بها أدناهم وهم يد على من سواهم [٢٧]. وأن من تبعهم من يهود فله النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن بينهم التناصر والنصح والنصحية والبر دون الإثم. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الوثيقة وأنه مهما شجر من خلاف بين أهل هذه الصحيفة فمرده إلى الرسول محمد صلي الله عليه وسلم [٢٨].

بهذا التدبير الحكيم أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد كانت صورته الظاهرة بياناً وآثاراً لقيم الإسلام التي تمتع بها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم ما ينفك يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف.

صلح الحديبية :

بعد الهجرة بستة أعوام تطورت الظروف في الجزيرة العربية لصالح المسلمين فسعي الرسول صلى الله عليه وسلم لإقرار حق المسلمين في أداء عباداتهم في المسجد الحرام الذي صدهم عنه المشركون في السابق فأعلن أنه معتمر ودعا أصحابه لذلك وخرج في غرة ذي القعدة على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه بغير سلاح سوى السيوف في القرب.

تجلت رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في السلم وميله لحقن الدماء وحماية أصحابه بأوضح برهان في صلح الحديبية فعندما حالت قريش بينه وبين ما اراد من العمرة وتعظيم بيت الله الحرام أبرم معها إتفاق صلح رآه أصحابه مهيناً فعارضوه، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر عليه وأنفذه لأنه كان يعلم ما لا يعلمون [٢٩].

إشتمل صلح الحديبية على أربعة بنود رئيسة تبدو للناظر إليها من الوهلة الأولى إجحاف وحيف بالمسلمين وهي: أن يرجع الرسول بمن معه فلا يدخل مكة على أن يأتيها العام المقبل فيدخلها لمدة ثلاثة أيام بسلاح الراكب، وأن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين لمدة عشر سنين، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده من قبائل العرب دخل ومن أحب الدخول في عهد قريش دخل وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي من الطرفين جزءاً منه، وأن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده ومن جاء قريشاً هارباً من محمد لم يرده.[٣٠]

يقول ابن شهاب الزهري في صلح الحديبية: " ما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه إنما كان القتال حيث إلتقي الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنين مثل من كان في

الإسلام قبل ذلك[٣١] .والدليل من وقائع التاريخ على صحة قول الزهري أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح على رأس عشرة آلاف في قول جابر بن عبد الله رضي الله عنه. ولقد أسلم كثير من زعماء قريش مثل: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة في هذه الفترة [٣٢]

كا من آثار هذا الصلح المبارك أن تهدمت حجة قريش في جمعها العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويعظمها ويكسوها. ومن آثاره كذلك أن فرغ الرسول من العرب الذين يسيرون في فلك قريش فتفرغ لليهود فأنهى وجودهم السياسي والإقتصادي والعسكري في جزيرة العرب، ودخلت أفخاذ وبطون وقبائل عربية عديدة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما إنقطع أملها بنصر أو عزة أو بغير الإسلام [٣٣].

ومن الآثار الباهرة لصلح الحديبة توفر الأمن والطمأنينة للمجتمع المسلم بالمدينة المنورة، بعد أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون ظهورهم بقريش، وتبعثرت القبائل الوثنية التي كانت تتربص بالمدينة. وكما أسلفنا فإن تحقيق أمن المجتمع الإسلامي وحمايته كان غاية عزيزة يتوخاها الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أعماله وقد تحققت بدرجة كبيرة بصلح الحديبية الي سماه الله تعالي الفتح المبين في قوله تعالي ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{2} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{3}﴾ [٣٤]

موادعة القبائل:

ظل الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً دائماً أن لا يشغله أمر مهما عظم عن مهمته في تبليغ الدعوة والتعليم والإرشاد إلا بقدر ما يزيحه

عن طريقه. وكان مدركاً إدراكاً ُ راسخاً أن أمثل السبل لذلك هو تحقيق أكبر قدر من السلام. وقد جعل إعتراض عير قريش هدفاً إستراتيجياً له لإسترداد شئ من حقوق أصحابه المادية التي غلبتهم عليها قريش ولتخميد شوكة قريش بفرض الحصار الإقتصادي عليها وتفكيك أحلافها السياسية مع القابئل العربية لتفيء إلى الحق [٣٥]. ولكنه على الرغم من ذلك عمل جاهداً على حقن دماء أصحابه ودماء أعدائه القرشيين ما وجد إلى ذلك سبيلاً. ومن ذلك إبرامه لعدد من معاهدات الصلح والموادعة وحسن الجوار مع بعض القبائل المقيمة حول المدينة على الطريق التجاري للشام. ففي أول خروج حربي له في صفر من العام الثاني للهجرة سار إلى ودان، وهو واد لبني ضمرة، مستهدفاً عيراً لقريش فأبرم إتفاق صلح وموادعة مع مخشي بن عمرو زعيم بني ضمرة تعهد لهم فيه بتأمينهم على تنفسهم وأموالهم والنصر عللا من رامهم بسوء على أن لا يحاربوه في دين الله ولا يناصروا عليه عدواً [٣٦].

وقد أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدتين مماثلتين مع بني مدلج وحلفائهم ومع قبائل جهينة بنواحي العيص بقيادة زعيمهم مجدي بن عمرو الجهني. .ولقد تمكن مجدي بالفعل من التوسط بين المسلمين والقرشيين في سرية سيدنا حمزة عندما إعترض عيراً بقيادة أبي جهل قريباً من ساحل البحر بناحية العيص [٣٧].

الفصل الثالث :

الغزوات والسرايا:

نتناول في هذا الفصل بالإستعراض والتحليل أسباب ونتائج الحروب المتعددة التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم ضد أعدائه من المشركين وأهل الكتاب، فقد إنغمرت أسباب تلك الحروب في بحر التفضيلات المتكاثرة التي ساقها كتاب السير والمغازي، وربما إشتبه الأمر على البعض فظنوا أن تلك الحروب لم يكن لها من مبرر سوى العدوان وإرغام الغير على قبول الإسلام أو إعطاء الجزية للمسلمين، وربما أعطي ذلك مسوغاً لأعداء الإسلام ليستنتجوا أن الحروب الإسلامية هي حروب غصب ونهب وأن دوافعها إقتصادية أكثر مما هي دينية وأخلاقية في إطار منهج الرسول صلى الله عليه وسلم لتبليغ الدعوة وحماية المجتمع المسلم.

غزوات النبي صلي الله عليه وسلم :

لقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعاً وعشرين غزوة هي:

غزوة ودان غزوة بواط، غزوة العشيرة، غزوة بدر الأولي، غزوة بدر الكبرى، غزوة بني سليم، غزوة السويق، غزوة غطفان، غزوة بحران، غزوة أحد غزوة حمراء الأسد، غزوة بني النضير، غزوة ذات الرقاع، غزوة بدر الآخرة، غزوة دومة الجندل، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، غزوة بني لحيان، غزوة ذي قرد، غزوة بني المصطلق، غزوة الحديبية، غزوة عمرة القضاء، غزوة فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف وغزوة تبوك.[37]

أما الغزوات التي وقع فيها قتال فعلي بين النبي صلى الله عليه وسلم أو بين أصحابه فهي تسع غزوات فقط هي :غزوة بدر الكبرى، غزوة احد، غزوة بني المصطلق، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، غزوة خيبر، غزوة فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف [٣٨].

أسباب الحروب النبوية :

بالإستعراض التحليلي لوقائع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه نجد أن هناك أربعة أسباب رئيسة حملت الرسول صلى الله عليه وسلم لإمتشاق الحسام وخوض غمار الحرب هي :الدفاع عن النفس، حماية البيضة ورد الأعداء، المعاقبة على نقض العهود والتأليب على المسلمين وحشد الحشود لغزوهم. ومن هنا يتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخرج في حرب إعتداء قط، ففي جميع تلك الوقائع كان العدو هو الطرف الباديء بالعدوان بالهجوم المباشر بالجيوش الجرارة كما فعلت قريش في بدر وأحد والخندق [٣٩] ولم يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم القبائل المتحالفة مع قريش إلا بعد أن طلبته وبدأته بالعدوان إما بقتل أصحابه أو بالإعتداء على مقدرات المجتمع المسلم كفعل هذيل وبني لحيان وعضل وديل والقارة [٤٠]

كما حارب الرسول صلى الله عليه وسلم من بدأه بالعدوان وتصدى لمن نقض عهده أو أخفر ذمته، والأمثلة على ذلك كثيرة في مواقعه مع يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة [٤١]. أما تأليب القبائل وتدبير المؤامرات والعمل على إستئصال شأفة الإسلام فقد نبغ فيه كفار قريش وقبائل غطفان وهوازن وبني فزارة إلى جانب اليهود [٤٢].

أما الذين شرعوا في التجهيز لحربه وأحبط محاولاتهم فهم جبهة عريضة من قبائل هوازن وقطفان وثقيف وبعض بطون تميم وقبائل قضاعة وبني عذرة وبلا بتخوم الشام وفي غزوة تبوك المشهورة ألقى الرسول صلى الله عليه وسلم الرعب في قلوب جموع بني الأصفر الذين نصبوا لحربه بأطراف الشام.

كانت السرايا التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي الأعداء من حوله لردع وإجهاض المحاولات المتكررة للإعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة المنورة ومنع نصرة أعداء الإسلام من يهود وغيرهم ' أما السرايا التي بعثها لإعتراض عير قريش فقد كانت من أجل تحقيق هدف إستراتيجي قديم هو تعويض المهاجرين عما أستلب منهم بمكة وإضعاف إقتصاديات قريش وتوهينها

مما تقدم نخلص إلى إنتقاء نظرية الحرب العدوانية المنافية للقيم والأخلاق عن حروب النبي صلى الله عليه وسلم فهو لم يسع قط للحرب من أجل التوسع الإقليمي أو نهب ثروات الشعوب أو تحقيق مكاسب ذاتية، وإذا إنتفت هذه الشبهات عن الحروب النبوية وجب علينا إدراجها في مصاف الحروب الأخلاقية العادلة.

المصادر والمراجع:

١. صحيح البخاري "كتاب العلم 1/216 "وصحيح مسلم في باب الكتاب والسير 1/437
٢. ابن حجر، أحمد مبن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة) 852 -772هـ (دار الكتب العلمية بيروت د.ت ج 3/147
٣. ابن هشام، محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفي السقا وابراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، د .ت دار إحياء التراث العربي 4/256
٤. عماد الدين خليل، دراسة السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1401
٥. ابن هشام، السيرة النبوية 1/364
٦. ابن القيم، زاد المعاد، المطبعة المصرية 1347هـ 1/23
٧. سهيلي عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت 3/217 1398
٨. صفي الدين المبارك فوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء القاهرة 202م ص 148
٩. ابن هشام، السيرة النبوية 442 -1/441
١٠. ابن هشام، السيرة النبوية 2/183وزاد المعاد 2/109وصحيح البخاري 2/584
١١. ابن هشام، السيرة النبوية 179 -2/169
١٢. صحيح البخاري 1/402وصحيح مسلم 2/258
١٣. ابن هشام، السيرة النبوية 422 - 1/421

١٤. سعيد حوى، الرسول صلي الله عليه وسلم، دار الكتب العربية، بيروت 1978م 2/207
١٥. صحيح البخاري، كتاب طلب العلم 1/345
١٦. ابن القيم، زاد المعاد 2/139وفتح الباري 7/493
١٧. صحيح البخاري، باب علامات الإيمان حب الأنصار 1/7
١٨. صحيح البخاري، باب وفود الأنصار 1/550
١٩. ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق 1/438
٢٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت 1388هـ 2/8
٢١. البيهقي، أبوبكر احمد بن الحسين، دلائل النبوة وعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت 1405هـ
٢٢. ابن هشام، السيرة النبوية 4/159
٢٣. صحيح البخاري 698 – 2/696وابن هشام 307 – 2/297
٢٤. السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت 1398هـ 3/28
٢٥. سعيد حوى، الرسول صلي الله عليه وسلم، دار الكتب العربية، بيروت 1978م 1/177
٢٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى ، مرجع سابق 2/129
٢٧. صحيح مسلم، باب صلح الحديبية 2/105وصحيح البخاري 1/380
٢٨. ابن الجوزي، ابي الفرج عبد الرحمن ت 597هـ، تاريخ عمر بن الخطاب، مطبعة التوفيق مصر 1379هـ ص 40- 39
٢٩. البيهقي، ابوبكر احمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة 2/26

٣٠. الطبري، ابن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت 1408هـ 2/160

٣١. ابن هشام، السيرة النبوية 2/389وصحيح البخاري، باب الغزوات 2/612- 622

٣٢. الواقدي، محمد بن عمر، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت 1348هـ 1/106

٣٣. ابن هشام، السيرة النبوية، 2/317

٣٤. صحيح مسلم، باب غزوات الرسول صلي الله عليه وسلم 2/615

٣٥. ابن سعد، الطبقات الكبرى 2/14

٣٦. الواقدي، المغازي 2/312

٣٧. عماد الدين خليل، دراسة السيرة، مرجع سابق ص311

٣٨. محمود شيت خطاب، الرسول القائد، مكتبة الحياة، بيروت 1969م ص 171

٣٩. ابن هشام، السيرة البنوية 4/411

٤٠. الواقدي، المغزي 3/96

٤١. محمود شيت خطاب، الرسول القائد ص 211

٤٢. محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1408هـ ص 425